الحق والقـــوة (*)

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

فى هذا الجو المملوء بالآلام والويلات ، وفى هذه الساعات الرهيبة التى ينبض لها قلب العالم هلعاً وجزعاً من مأساة لا يعلم مداها، وتطاحن لا يستطيع أن يقدر نتائجه ؛ فى هذه اللحظات التى يعتدى فيها الأقوياء على الضعفاء ويطغى المسلحون على العزل الأبرياء ، وفى هذه الأيام التى خفتت فيها موسيقى السلم ذات الألحان الشجية والنغمات الحلوة وحلت محلها نواقيس الحرب ذات الأصوات المدوية ؛ بل وفى هذه الأعياد السنوية التى كان يقدسها قديماً الهمجيون أكثر مما يقدسها اليوم المتحضرون، والتى كان يلقى فيها الأسلحة المتحاربون ؛ فى هذه الظروف كلها رأيت من الخير أن أتحدث عن فكرة الحق والقوة

وإذا ما تحدثت عن هذه الفكرة فإنما أعرض للمشكلة الرئيسية بين مشاكل الفلسفة السياسية منذ أفلاطون إلى اليوم، فهى مشكلة الماضى والحاضر ، ويخيل إلى أنها ستبقى مشكلة المستقبل إلى النهاية . وكأنى بالحق والقوة ضدين لا يجتمعان وعدوين لا يتهادنان ، يقدر لأحدهما الغلب ثم لا يلبث الآخر أن يعدو عليه وينتزع منه سلطته ، وما تنازعهما إلا صراع بين الروحية والمادية ، بين المثالية والواقعية ، بين الإنسانية والوحشية ، بين الحضارة والهمجية . ولن أكون فى حديثى هذا المشرع الذى يعنى بالقوانين وصوغها وبيان ما فيها من عقوبات وقصاص تحول دون عدوان المعتدين وظلم الظالمين ، ولا السياسى الذى يقدم الحلول المختلفة المشاكل الدولية الهامة . وإنما سأعرض لموضوع الحق والقوة من ناحيته الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية ، فأبين كيف نشأت الفكرتان وكيف تطورتا وماذا كان لهما من أثر فى حياة المجتمع ، ثم أشير إلى أوجه التقابل بينهما وموقف الفلاسفة والأخلاقيين منهما

(*) محاضرة ألقيت بالجمعية الجغرافية فى مساء الثلاثاء ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٩

ليس من السهل أن نحدد بالدقة كيف اتجه الإنسان الأول نحو فكرة القوة ، أقاده إليها حسه وبصره وسمعه ولمسه ؟ أم هداه إليها شعوره وقلبه وعزمه وإرادته ؟ وبعبارة أخرى هل تبينا القوة لأول مرة فى أنفسنا أو فى الظواهر الطبيعية المحيطة بنا ؟ وهل هى من أصل سيكولوجى أو من مصدر طبيعى ؟ وهل هى وليدة العالم الداخلى أو الخارجى؟ وأغلب الظن أنها نتيجة هذين الجانبين وثمرة هذين المؤثرين، فأدركنا القوى الطبيعية وقوتنا الإنسانية فى الوقت الذى اصطدمت فيه الطبيعة بنا واصطدمنا بها . وكيفما كان أمر هذه النشأة فإن الإنسان سلم من قديم بوجود قوى فى الكون متعددة : طبيعية وإنسانية ، مادية وروحية ، ظاهرة وخفية ، سماوية وأرضية . فإذا ما سألته عن حقيقة هذه القوى عز عليه كشفها وصعب عليه تحديدها، وجُلُّ ما تحظى به منه أن يعرفها بآثارها ويتعرفها بنتائجها ، فيقول إنها ما يتم به التغير

بيد أنه على الرغم من كل هذا لم يتردد الفلاسفة والاجتماعيون فى أن يبينوا هذه الفكرة الغامضة فى نشأتها والخفية فى مدلولها ، وكان لا بد لهم أن يفعلوا ما داموا يدرسون التغير وعلله ، إن فى عالم الطبيعة أو فى عالم الإنسان . فنرى الرواقيين فى التاريخ القديم ينتهون إلى مذهب ديناميكى شبيه بذلك المذهب الذى صعد به ليبنتز إلى القمة فى القرن السابع عشر . يتصورون أن العالم كائن حى مشتمل على النار والحرارة التى هى المبدأ الفعال والمؤثر فى المواد والأجسام المنفعلة ، ولا كيان للمادة إلا بواسطة ذلك « النفس الحار » (الأبنيا) الذى يضم أجزاءها ويدفعها إلى الحركة والتغير ، فقوة العالم كامنة فيه تسيره على نظام ثابت وتخضعه لقوانين معينة. وإن فكرة المادة والصورة التى قال بها أرسطو ولم يوضحها تمام التوضيح ولدت فى القرون الوسطى تلك القوى الخفية والخواص الكامنة التى هى مصدر التغيرات الكونية والأحداث الإنسانية ، وإن كان وراءها قوة عظمى ، هى قوة القوى وعلة العلل . وإذا كان لبيكون وديكارت رسالة جديدة فى التاريخ الحديث إزاء المسائل الطبيعية فهى أنهما حاولا محاربة الصفات الغامضة والصور الخفيــة التى رددها المدرسيون . على أن بيكون لم يسلم تماماً من آثار تلك الفلسفة المدرسية ، وبدا فى بحثه

التجريبي وكأنه ينقب عن أمور ذاتية وصفات أولية للأشياء هي سر تميزها وتغيرها ، وفكرة الحركة والتدافع التي ذهب إليها ديكارت ترد التغير في آخر تحليل إلى قوة وحيدة ، إلى الباري جل شأنه . ولعل هذا هو الذي قاد ليبنتز إلى نظرية « النقاد » والذرات الروحية ، فكان يتصور الأجسام كلها في صورة معنوية أبلغ مما ذهب إليه الرواقيون ، ويتوهم أنها مجموعة ذرات روحية فيها قدر من النشاط والإدراك يتفاوت على حسب مرتبتها ، وقد أبدعها ونسقها إله هو روح الأرواح ومناد المنادات ، وإذا كان مرجع التغير كله إلى الله فلم نبحث عن قوى وأسباب أخرى سواه ؟ والأجدر بنا أن نرد كل شيء إليه سواء أكان من الظواهر الطبيعية أو الأعمال الإنسانية . وهكذا رأى مالبرانش وباركلي أن يردا القوى الظاهرية كلها إلى الله ، وقررا أن ليس ثمة قوة في نظرهما غير تلك القوة الوحيدة

هذا هو شأن القوة فيما يتعلق بالظواهر الطبيعية ، وليس شأنها بأقل خطراً فيما يتعلق بالأحداث الإنسانية ، فقد دالت بسببها دول وقامت أخرى ، وذل جبابرة وعز آخرون . وللقوة في المجتمع مظاهر عدة : فهناك القوة المادية الجسمية ، وإلى جانبها القوة الصناعية والإنتاجية ، ثم قوة المال والفكر والعبقرية ، وأخيراً قوة العزيمة الماضية وإرادة الشعوب التي بدلت صفحات التاريخ . ولا نظننا في حاجة أن نلاحظ أنه إذا كانت قوة الأفراد والطغاة هي التي سادت العالم بالأمس فإن إرادة الشعوب حلت محلها ، بل كانت أحياناً أشد أثراً وأعظم إنتاجاً . ومن هذه القوة الشعبية تولدت الحركات الدستورية وبواسطتها تأيدت النهضات الاستقلالية ، وعنها صدرت قوة الطوائف والنقابات والأحزاب . وإذا ما تتبعنا الفلاسفة السياسيين في مراحل التاريخ المختلفة ، وجدنا أنهم إنما حاولوا أن ينظموا القوى المتباينة أو عولوا على قوة دون سواها . فأفلاطون قديماً أخذ نفسه بالتوفيق بين قوى المجتمع المتباينة : بين حراس المدينة من جانب ، والمنتجين من صناع وزراع من جانب آخر ، والحكام والقضاة من جانب ثالث ؛ فأراد التوفيق في اختصار بين الشجاعة والمنفعة الذاتية والعقل . ومكيافيلي في عصر النهضة أو هوبس في أوائل التاريخ الحديث ، ونيتشه بين المعاصرين إنما ناصروا قوة الفرد وأيدوا الحكومة المستبدة ظناً منهم أنها الوسيلة الناجعة لحكم الجماهير . أما لوك وفولتير وروسو ، فقد اعتدوا بقوة الشعب كل الاعتداد ، ووضعوا دعائم النظم الدستورية والنيابية الحديثة . وإلى جانب هؤلاء وهؤلاء نجد جورج واشنطون ومازيني وسعد زغلول على رأس النهضات الاستقلالية ، كما نجد كارل ماركس يصور قوة اليد العاملة في أوضح صورها ، ويعلن حقوقها إزاء أصحاب رءوس الأموال .

في هذه النهضات على اختلافها والثورات على تنوعها ما يشهد بما للقوة من أثر في حياة المجتمع ، بل نستطيع أن نقول إن المجتمع الإنساني مجموعة قوى متعددة، متعاونة أحياناً ومتعارضة أحياناً أخرى . وسعادة الأمة في أن توجه هذه القوى في وجهاتها الملائمة ، وأن تتضافر على غرض أسمى . وأي نظام اجتماعي لا ينمو ولا يطرد ، بل ولا يحيا ولا يثبت إلا إن كانت وراءه قوى مادية وروحية تغذيه وتعاونه .

(يتبع) ابراهيم مدكور

يصدر عددنا الممتاز في اليوم الرابع من شهر مارس المقبل مدبجاً كسالفيه بأقلام أعيان البيان في مصر والعالم العربي

أطلبوا

نداء المجهـول

رواية قصصية للأستاذ محمود تيمور

فرعون الصغير

مجموعة قصص للمؤلف نفسه